مركز نماء للبحوث والدراسات
Nama for Research and Studies Center

دراسات فكرية (٤)

ثلاث رسائل في
الإلحاد والعلم والإيمان

عبدالله بن سعيد الشهري

nama-center.com

المؤلف:

عبدالله بن سعيد الشهري

كاتب سعودي. باحث دكتوراه علوم اجتماعية. مجال منظمات متعلمة (جامعة ليستر).

ماجستير علم اللغة التطبيقي. مجال علم اللغة النفسي. (جامعة نوتنغهام).

بكالوريوس علم اللغة التطبيقي (جامعة الملك سعود)

بكالوريوس الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

صاحب أول دراسة رائدة عالمية في ادخال (علم الانفس الممكنة) في (علم اللغة النفسي) ضمن مجموعة من الباحثين - منشور في كندا.

من إسهاماته العلمية :

- كتاب المخرج الوحيد - إنجليزي.
- كتاب حقيقة الوجود الإنساني - انجليزي.
- العلاقة بين الخيال والتحفيز والنفس الممكنة واكتساب اللغة - بحث علمي مطبوع.
- الدروس الإسلامية الأساسية - ترجمة للإنجليزية.
- الدروس المهمة لعامة الأمة - ترجمة للإنجليزية.
- مقالات متنوعة في الصحف والمجلات في الشأن المحلي والاداري والثقافي.

ثلاث رسائل
في الإلحاد والعلم والإيمان

دراسات فكرية (٤)

ثلاث رسائل
في الإلحاد والعلم والإيمان

عبد الله بن سعيد الشهري

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa for Research and Studies Center

ثلاث رسائل

في الإلحاد والعلم والإيمان

عبدالله بن سعيد الشهري

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٤

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مركز نماء»

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa for Research and Studies Center

بيروت - لبنان

هاتف: ٢٤٧٩٤٧ (٧١-٩٦١)

المملكة العربية السعودية - الرياض

هاتف: ٩٦٦٥٤٥٠٣٣٣٧٦

فاكس: ٩٦٦١١٤٧٠٩١٨٩

ص ب: ٢٣٠٨٢٥ الرياض ١١٣٢١

E-mail: info@nama-center.com

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز نماء للبحوث والدراسات

الشهري، عبدالله

ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان / عبدالله بن سعيد الشهري

٢٧٢ ص؛ ١٤,٥ × ٢١,٥ سم. (دراسات فكرية؛ ٤)

١- العلم الحديث ٢. الالحاد ٣. الإيمان

أ. العنوان. ب. السلسلة.

ISBN 3-868-431-614-978

SHARANAT PRESS

مطابع الشبانات الدولية

هاتف: ٠٠-٢١٤١١ - فاكس: ٤٥٣٨٥٣٣

«الناس في عامة الأمر لم يختلفوا في أن لهم مدبراً يدبرهم، وخالقاً أوجدهم، إلا أنهم اختلفوا في تعيينه على آراء مختلفة، من قائل بالاثنين أو بالخمسة، أو بالطبيعة أو بالدهر، أو بالكواكب، إلى أن قالوا بالآدميين والشجر والحجارة وما ينحتون بأيديهم».

الشاطبي

«... ربما تأمل الإنسان القديم أفكاراً مشابهة وآل به الأمر إلى الإيمان بوجود قوة عالمة أبدعت كل شيء، أو ـ كما في تعبير بعضهم اليوم ـ حوّلت الطاقة إلى أشكال المادة. ماذا تكون هذه القوة العالمة؟ سؤال تباينت الآراء حوله واختلفت عبر الأزمان، مخلّفة وراءها قائمة طويلة من الاحتمالات».

غاري غثري ـ ١٩٩٧م

«في أقصى درجات تقلّبي، لم أكن في يوم من الأيام ملحداً بمعنى منكر لوجود الإله».

تشارلز دارون

«ولا غش أعظم من غش في إبطال الحقائق».

ابن حزم

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٩
الرسالة الأولى	
الإلحاد الجديد.. تاريخ وواقع	
إلحاد «جديد».. لماذا؟	١٣
أمُّ الملامح	١٦
مرتكزات	٢٧
المرتكز الفلسفي التاريخي	٣١
المرتكز النفسي الوجودي	٧٤
الرسالة الثانية	
مبحث في العقل	
مبحث في العقل	٩٩
تصورٌ للعقل وتداعياته	١٠٨
الرسالة الثالثة	
تتمات، ونقولات، وتعليقات	
تتمات، ونقولات، وتعليقات	١٧٧

الموضوع	الصفحة

إشكال وجواب ١٧٩
ورطة ١٨٢
سؤال وجوابه ١٨٤
قصور المذهب الطبيعي Naturalism ١٩١
القيمة المعرفية للإلحاد ١٩٣
سراب الصدفة.. ..... ١٩٤
مجازفة الأمل! ٢٠١
ومضة ٢٠٢
اختلال المقاييس ٢٠٣
الفراغ التفسيري ٢٠٤
اعتراض على التصميم وجوابه ٢٠٦
تنبيه! ٢١٤
ومضة ٢١٥
إشكال وجوابه ٢١٦
حيرة دارون: رحمة الله ورأفته في مقابل دموية الطبيعة وقسوتها . ٢٢٤
أركان التصميم، وجود الخالق، ومآلات مواقع الإدراك ٢٢٧
ديفيد هيوم والمعجزات ٢٣٦
الأخلاق.. وهيوم مرة أخرى ٢٣٨
سؤال وجواب ٢٤١
برهانٌ مختصر يأتي على الإلحاد الإيجابي positive atheism
من أصله ٢٤٦
سبق الأوضاع المعرفية على المتصوّرات الوجودية ٢٤٨

تمهيد

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على خليله من خلقه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً..

أما بعد..

يأتي هذا العمل نزولاً عند رغبة بعض الفضلاء في مركز نماء وقناة دليل؛ فمنذ أن أعلنتُ وعدي في إحدى حلقات برنامج حوارات نماء في شهر شعبان من عام ١٤٣٤هـ بالكتابة في شأن الإلحاد (الجديد) وأنا مهموم لا بإنجاز هذا الالتزام فحسب وإنما بكيفية إنجازه رغم المكدرات وازدحام الأعمال وضيق الأوقات. لكن يسّر الله ما كنت أخشى عسره، وأنجزت وعدي بحسب طاقتي، فالحمد لله وحده.

لكن هذا لا يعني أني لم أكن لأكتب في هذا الموضوع من تلقاء نفسي؛ فقد كان في النية منذ ما يقرب من العامين أن أكتب متى سنحت الفرصة وناسبت الظروف؛ إدراكاً مني لأهمية الحَدَث

وتقديراً لمسيس الحاجة إلى الكتابة فيه، ولكني اكتشفت أن سلوك انتظار الفرص وتحيّن الظروف المناسبة مدعاة للتراخي وضرب من التسويف المحقق، فكم من إنجازات أهدرت ومشاريع ضاعت بسبب هذه الحيلة النفسية الخفية. ولا أزعم رغم اغتباطي بفضل الله في إنجاز هذا العمل أني أحطتُ بكافة قضايا الموضوع؛ إلا أني حرصت أن أنظر إليه من زوايا مختلفة، وتتسم بدرجة مُرضيَة ـ هكذا أرجو ـ من الجدة والشمول والعمق. **إنها ورقات أو مباحث متوسطة الطول في عدد من المسائل المتعلقة بالإلحاد؛ هكذا أُحب أن يُنظر إلى الكتاب من جهة حجمه ونطاق استيعابه.**

لقد شارك في خروج هذا الكتاب بصورته الحالية أحبة يستوجبون تقديري وامتناني. أمنَّهُم علَيّ في هذا **زوجتي الحبيبة** بدعمها وتهيئتها وصبرها. كذلك أتوجه بالشكر الوافر للأخوين الفاضلين **سلطان العميري وعبد الله العجيري**؛ لقاء اطلاعهما على ما أمكنهم الإطلاع عليه من هذا الكتاب وإبداء ملحوظاتهما القيّمة حوله. واشكُر شكراً حاراً كلاً من سعادة الأستاذين ياسر المطرفي وعبد الله القرشي على دعمهما الكريم وتعاونهما الصادق لإتمام هذا العمل.

اللهم إنك أنت الحق لا إله إلا أنت؛ أرنا الحق حقاً وارزقنا واتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه..

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾

الرسالة الأولى

الإلحاد الجديد.. تاريخ وواقع

إلحاد «جديد».. لماذا؟

لأن الإلحاد حالة إدراكية لم تتمتع بأي رسوخ نوعي في الوعي الجمعي الإنساني؛ فهي حالة تعاود الظهور كزعانف سمك القرش وسط بحر الدين الهادر. دعونا نستفتي الواقع، فنسأل: لو كنّا حقاً أبناء الطبيعة الخُلَّص، وأحفاد الكون الشرعيين، المنحدرين من صلبه، هل كان سيفتقر خيار الإلحاد إلى مكابدة أم كان سيكون فطرة؟ وهل كنّا سنجد في طرد فكرة الإيمان أدنى عناء أم كان سيكون سليقة؟

بالنسبة لتاريخ البشر الحافل، نحن أمام ظاهرة طارئة حفّزتها مثيرات مرهونة بسياق حضاري معين، هي في علاقتها بنتائجها أشبه ما تكون بارتباط بافلوف الشرطي، فقط أزل المثيرات أو خففها تزول الاستجابة أو تقل والعكس. فلا الاستعداد الإدراكي العام ولا السجل التاريخي المتطاول لبني الإنسان، ولا حتى المآل الذي يظن الملحد أننا سننتهي إليه، لا شيء من ذلك يشفع

للإلحاد[١] بطابعه النضالي المتعالي الذي نشهده اليوم[٢]. لقد كان تشارلز دارون حيال مسألة وجود الخالق أفضل حالاً وأكثر اتزاناً من كثير من تلامذته المتأخرين، سواءً في معتقده أو لغته أو حتى أدبه!. ففي الوقت الذي يخشى فيه فرسان الإلحاد الجديد[٣] أن تفرُط منهم عبارة تمنح الإيمان أدنى مشروعية، ويحتاطون لهذا أشد الاحتياط، نجد دارون يعطي درساً في الشفافية فيعلن بكل أريحية: «أما وجود حاكم للكون فهذا مما دانت به جموعٌ من أعظم العقول التي وُجدت على الإطلاق»[٤].

مرة أخرى: نحن في أسوأ الأحوال[٥] أمام وعي «مُحدَث»، أمام إفراز حضاري متوقع في ظل تحول أمل الإنسان من السماء إلى الأرض كما يقول فيلسوف اللاهوت هيوستن سميث، طمعاً في سوق مشروع التحرر والاستقلال بل الانحلال إلى محطته الأخيرة[٦]. وبالرغم من مرحلية الوعي الإلحادي، ودورانه مع

---

(١) يقول كل من ويل وإريل ديورانت: «حتى المؤرخ المشكك لديه احترامٌ متواضعٌ للدين، ذلك أنه يراه مؤدياً لوظيفته، وأنه لاغنى عنه في كل أرض وجيل».
(Will & Ariel Durant (2010) The Lessons of History, p. 43).

(٢) طبعاً هذا لا يعني بالضرورة أننا نعتبر الإلحاد المسالم الوديع المتعقل ـ في نظر الملحد ـ حالة «طبيعية»، فضلاً عن مقبولة. نعم، بالنسبة لنا كمسلمين، هي طبيعية قدراً، ولكنها مرفوضة شرعاً.

(٣) يطلق على دوكنز وهاريس وهتشنز ودينيت الفرسان الأربعة The Four Horsemen.. ولهذه التسمية مناسبة.

(٤) Darwin, Charles (1902) The Descent of Man and Selection in Relation to Sex, P.F. Collier & Son, London, Vol. I, p. 131.

(٥) أي: بالنسبة لنا.

(٦) يقول فوكوياما: «العائق الثقافي الثاني للديمقراطية يتعلق بالدين»؛ وفوكوياما لا يقصد =

أسبابه الثقافية والاجتماعية وجوداً وعدماً، إلا أن المرء ليتملكه العجب من هذه الثقة المبرمة ـ على الأقل فيما يبدو ـ لدى الملحد الجديد في أصالة الفكرة الإلحادية؛ بل الأغرب والأعجب ثقة قطاع واسع من الأتباع لا في براهين أو أدلة متبوعيهم، فإن المقلّدين لا اجتهاد لهم، وإنما ثقتهم الواثقة في ثقة من يتبعون.

من ملمح «الثقة» هذا نبدأ رحلتنا في التعرّف على أبرز ملامح ومرتكزات الإلحاد الجديد[1].

= ديناً بعينه وإنما جنس الدين؛ يقول: «ولكن الدين في ذاته لم يصنع مجتمعات حرة». (Fukuyama, F. (1992) The End of History and the Last Man, Penguin, p. 216).

(١) يذكرني هذا الملمح بامرأة غربية عرّفَت نفسها في إحدى مواقع التواصل الإجتماعي بعبارة لافتة ومثيرة للشفقة: «ملحدة وسعيدة!».

أمُّ الملامح

إن كان للإلحاد الجديد من ملمح معنوي يقيم صُلب سائر الملامح فهو ملمح الثقة confidence أو، بالتعبير القرآني، «الاطمئنان» لفكرة الإلحاد؛ وقد أثبت القرآن العزيز للكافر بالله واليوم الآخر اطمئناناً خاصاً يزيد وينقص كما يزيد وينقص الإيمان في قلب غريمه المؤمن[1].

نعم، يُبدي معتنق الإلحاد الجديد ثقة تامة في قرار إلحاده[2]، وفي مسؤوليته تجاه الرسالة التي يحملها للعالم.

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

(٢) أود التنبيه على أني بصدد الحديث عن الإلحاد أو الملحد الجديد في صورته «القياسية» أو «النموذجية» (typical)، وإلا فالواقع يطلعنا على تباينات متفاوتة في الحضور والدرجة بالنسبة للملمح الواحد أو بعض الملامح بالنسبة لبعضها البعض، وأحياناً قد ينعدم أحد أو بعض تلك الملامح في بعض الحالات الفردية انعداماً شبه تام. نحن باختصار نتحدث عن الإنسان المتأثر بثقافة الإلحاد الجديد كما ينظّر له ريتشارد دوكنز Richard Dawkins، سام هاريس Sam Harris، دانييل دينيت Daniel Dennett، =

الإلحاد في نظره هو الخيار الذي لا يسع عاقلاً تجاهله، وهو النتيجة الطبيعية، والمحصلة الحتمية للتفكير المتجرّد الأمين[١]. يتبدّى ملمح الثقة عند الملحد الجديد من خلال ممارسات معينة؛ في ظهوره بمظهر الواثق أمام مرأى العالم في الحوارات والمناظرات واللقاءات والمناسبات المعلنة وغير المعلنة. كذلك نجده يتبدى من خلال استعداده التام لخوض أية معركة ضد الدين؛ لأنه في نظر نفسه مخلّص الإنسان من الأوهام التي لطالما جثمت على صدره لآلاف الأعوام[٢]. ونجده متبدياً أيضاً في ظهوره بمظهر «القائد الإنساني» المتفاني، القلق على مستقبل البشرية، المتأسف على ماضيها، المشفق على حاضرها[٣]،

= الهالك: كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens، أما سائر المنتسبين أمثال بول مايرز Paul Meyers وأنتوني غريلنغ Anthony Grayling ولورنس كراوس Lawrence Krauss وغيرهم، فهم في الجملة تلامذة لأولئك، وعيال عليهم.

(١) هذه الدعوة المطاطية إلى التفكير الأمين أو القرار الرشيد rational decision لا تمدنا بضوابط تستوعب كافة الممارسات المعرفية المشروعة. التفكير الأمين هنا هو التفكير بناءً على شروط يضعها الإلحاد، فهو يضرب طوقاً معرفياً على فضاءات العلم الممكنة فيخنقها خنقاً لكي ينتهي قرار الإنسان بطبيعة الحال إلى خيار واحد فقط: الإلحاد. في علم النفس قاعدة تقول: من يصنع الإطار يحكم النتيجة!.

(٢) العناوين الصارخة لبعض الكتب المبشرة بالإلحاد تعد ممارسة سلوكية أخرى يفسرها ملمح الثقة. يأتي في مقدمتها عنوان كتاب ريتشارد دوكنز المثير للجدل: وهم الإله، وكتاب كريستوفر هيتشنز ـ في تحد سافر لمعتقدات المؤمنين ـ بعنوان: الله ليس عظيماً، وكذلك كتاب سام هاريس تحت عنوان: نهاية الإيمان، والكتاب الآخر بعنوان: استحالة الخالق، تحرير مايكل مارتن وريكي مونيير، والقائمة ستطول إذا ما ضممنا سائر المخرجات الإلحادية المماثلة.

(٣) جدول ريتشارد دوكنز مليء بالزيارات «الدعوية» القصيرة والمركّزة. لكي تحمل عامة الناس على الإيمان بمشروعية قضيتك، وأهمية رسالتك، احرص أن تكون صاحب =

المتفائل بمستقبلها. وكما تصفهم مؤرخة الأديان كارن أرمسترونغ:

«أما بالنسبة لدوكنز؛ كسائر الملاحدة الجدد، سام هاريس، الفيلسوف الأمريكي الناشئ وطالب علم الأعصاب، وكريستوفر هيتشنز، ناقد وصحفي، الدين هو سبب كل المشاكل في عالمنا؛ إنه مصدر الشر المطلق ويسمم كل شيء. هؤلاء يرون أنفسهم في طليعة الحركة العلمية/العقلية التي ستنتهي باستئصال فكرة الإله من الوعي الإنساني»[1].

ولقائل أن ينازع في دقة هذا الملمح، بحجة أن إلحاد عصر التنوير مثلاً لم تنقصه الثقة، إن لم يكن في ثقته أشد وأنكى. وهذا صحيح بالنظر لجنس الثقة، وغير صحيح بالنظر لطابع الثقة المرافق لموجة الإلحاد الجديد. فثقة ملاحدة عصر التنوير كانت إلى حد كبير ثقة متهورة رعناء، إلى درجة أن بعض كبار ملاحدة تلك الفترة شنوا حرباً شعواء على كل ما هو ديني، فهدّموا الكنائس، وطاردوا رجال الدين، وأحرقوا الكتب المقدسة، مما أدى إلى استيقاظ الضمير الغربي ضد نوع جديد من التطرف لا يقل خطورة عن تطرف الكنيسة أيام محاكم التفتيش، فلم يمض وقت طويل حتى أدرك الناس أن تلك الثقة ليس ثقة بالمعنى الإنساني المطمئن للثقة وإنما ثورة همجية غير محسوبة. أما

= مبادرات وصولات وجولات، ولا تنس أيضاً أن تترك بعض الذكريات الطريفة والمآثر الغريبة (bizarre). هذا ما يفعله دوكنز بعفوية لا تخلو من تصنّع!

(١) Armstrong, K. (2009) The Case for God, p. 289.

خاتمة:

لقد كانت هذه الرسالة محاولة للوقوف على أبرز العوامل الثقافية والحضارية وراء تطور الوعي الإلحادي الجديد، وهذا يعني بطبيعة الحال أنه وعي طارئ، ومرهون بفرضيات صاغتها شروط ثقافية وحضارية طارئة أيضاً، وبالتالي هو في أسوأ الأحوال بالنسبة لنا وفي أحسنها بالنسبة للمخالف ظاهرة تتمدد وتنكمش، وغولٌ يصحو ويغفو، بحسب الدواعي أياً كانت. إن الدين جزء لا يتجزأ من التكوين النفسي العام لا للإنسان فحسب وإنما للأمم والحضارات. لسنا قلقين على مستقبل الدين، وإنما مستقبل الأجيال؛ لأن الدين مبني على عقيدة «الأمل والنجاة»، ونحن نطلب نجاة وسعادة الأجيال لا نجاة وسعادة الدين؛ أما المعرفة الأرضية فمبنية على عقيدة «الغرور والاكتفاء». يختصر فريتز زورن Fritz Zorn مراحل نشوء هذه العقيدة بقوله:

«ثم جاء عصر الأنوار (les Lumières) وانقلبت البنى السياسية والدينية التي كانت قد طمأنت، في المجتمعات التقليدية، كل فرد على موقعه في هذا العالم. لقد جسدت الثورة الفرنسية ١٧٨٩م الأمل الكبير بأن يتم إحلال الإنسان محل الله: فحتى لو لم يوجد مدبر عظيم، ولم تكن مصائرنا محكومة بقوة عليا، وحتى إن لم يكن هنالك من يرقبنا ويسهر على حسن سير الأمور بحكمته اللامتناهية التي لا يمكن سبرها، سنعرف كيف نتولى أمورنا بأنفسنا، وبفضل العلم والعقل، والتقدم

والديمقراطية، سنقضي على كل آلام البشر»[1].

ونحن ندرك كمسلمين أن هذه عقيدة تلامس شهوة مسبقة لدى البشر (إنهُ كان ظلوماً جهولاً)، فتجعلهم يلقون بأيديهم إلى التهلكة ربما عن طيب نفس منهم؛ لأنهم (يحسبون أنهم يحسنون صنعا). في كتاب «الحداثة، التغير الثقافي، والديمقراطية»، يضع انجلهارت ورفيقه يديهما على واحد من أهم أسباب «زوال سحر العالم» في حسبان الإنسان المتأخر: الشعور بالاقتدار (وظنّوا أنهم قادرون عليها)، وبالتالي خفوت الشعور بالافتقار. يقول المؤلفان:

«من أسباب تراجع المعتقدات الدينية التقليدية في المجتمعات الصناعية الشعور بأن السيطرة التقنية على الطبيعة تضعف الحاجة إلى الاعتماد على قوى فوق طبيعية. في العالم اللايقيني للمجتمعات ما قبل الصناعية، كان الإيمان بقوة عليا تضمن حسن سير الأمور يلبي حاجة نفسية رئيسية. من الوظائف الأساسية للدين أنه كان يوفر شعوراً باليقين في بيئة محفوفة بالمخاطر. وانعدام الأمان على المستوى الحسي والاقتصادي مما يفاقم الشعور بهذه الحاجة: قول الأوائل «لا يوجد ملاحدة في الخنادق»[2] يبين لنا كيف أن أزمنة الحروب تزيد في حاجتنا

---

(١) من أين تأتي العدمية؟؛ في: أساتذة اليأس: النزعة العدمية في الأدب الأوروبي، تأليف: نانسي هيوستن، ترجمة: وليد السويركي، دار كلمة. ٢٠١٢م، ص٢٢.

(٢) مثلٌ يحكي حال الجندي الغربي أثناء الحرب، حيث ينسى إلحاده ويجد الحاجة إلى الإيمان. وقد أشار القرآن إلى هذه الحالة في مواضع متفرقة، منها قوله جل شأنه ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

للإيمان بقوة عليا. ولكن بعد أن تخطّى الانتاج الصناعي النمو السكاني، وبعد أن أسهم العلم في زيادة معدلات الأعمار، تضاءلت الحاجة إلى الطمأنينة التي كان يوفرها الدين في الماضي»[١].

ولكن هل اختفت الحاجة إلى الدين حقاً؟ وهل غربت شمس الإيمان؟ والجواب بصوت واحد: لا! لقد جلب العصر الصناعي مآس جديدة، وأوقف الإنسان على واقع أشد خطورة وتقلباً من الواقع الذي كان يعيشه إنسان الرعي والزراعة؛ إن البشر اليوم يشكون أمراضاً حسية وأوجاعاً معنوية «لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»[٢]. فلئن زادت معدلات الأعمار كما يقول انجلهارت وويلزل، فلقد زادت معدلات الانتحار؛ ولئن زال سحر العالم كما يقول فيبر، فلقد وقع العالم في حبائل سحر جديد؛ ولئن ذاق الإنسان نشوة الاقتدار في المعمل والمختبر والمصنع، فلقد ذاق ويلات نشوته تلك أضعافاً مضاعفة: الشعور بالضآلة في عالم يزداد تعقيداً وسرعة يوماً بعد يوم، ذوبان الهوية وتفكك الصلات الاجتماعية، ظهور أنماط جديدة من التحكم والسيطرة، ارتفاع معدلات الفساد والبطالة والفقر والتلوث والجريمة والاكتئاب، والقائمة تطول؛ كل ذلك كما أخبر الحق سبحانه ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾،

---

(١) Inglehart, R. & Welzel, C. (2005) Modernization, Cultural Change, and Democracy: The Human Development Sequence, CUP, p. 27.

(٢) ابن ماجه، وحسنه الألباني.

وقد رجع كثيرٌ منهم بالفعل! ولكن عليهم أن يكملوا مسيرة الرجوع ليصلوا إلى العروة التي لا انفصام لها. يصف فيلسوف الوعي كن والبر الجولة الخاسرة التي مني بها القائلون بحتمية سيرورة التاريخ نحو اللّادين، فيقول:

«لطالما توقع علماء الاجتماع أن الحداثة سوف تجرف جميع الطوائف الدينية، لاعتقادهم أنها مؤسسة على خرافات بدائية ما قبل حداثية، ولكن ما يزال العالم طافحاً بحركات دينية تأبى الزوال»[١].

وفي ذات المعنى تقول الباحثة الشهيرة في علم اللاهوت المقارن كارن أرمسترونغ:

«بالرغم من أن كثيراً من الناس معادون للإيمان، إلا أن العالم يشهد صحوة دينية. خلافاً للتوقعات العلمانية الواثقة في منتصف القرن العشرين، الدين لن يذهب»[٢].

إن الإلحاد الجديد أثر لسياق حضاري ثقافي خاص وسيزول بزوال الشروط التي أنتجت هذا السياق. في تقديري، يمثّل الإلحاد الجديد منتهى سعي الإنسان للتمرد على الدين، وأتوقع والله أعلم عودة عالمية جامحة للدين ولكن بعد «حدث حضاري جسيم» يزلزل «الأنا» الإلحادية، لكني أسأل الله الذي بيده مقاليد

---

(١) Wilber, K. (2000) A Theory of Everything: An Integral Vision for Business, Politics, Science and Spirituality, Gateway, p. 133.

(٢) Armstrong, Karen (2009) The Case for God: What Religion Really Means, Bodley Head, p. 9.

كل شيء أن يرزقنا العافية، وأن يجنب هذه الأمة سوء قضائه. في كتابه العظيم «التناقضات الثقافية للرأسمالية»، وبعد أن سبَر العلل التي أنتجتها نُظُم العيش المتأخرة في حياة الإنسان، خلص دانييل بل Daniel Bell إلى الاستنتاج الآتي:

«إذاً ما الأشياء التي تهدي سلوك الإنسان بالفعل؟ لا يمكن أن تكون في الطبيعة، إذ أنها مجرد مجموعة من القيود الفيزيائية في طرف ما ومجموعة من الأسئلة الوجودية في الطرف الآخر، يسلك الإنسان سبيله خلالها من غير خريطة. كذلك لا يمكن أن تكون التاريخ، فالتاريخ لا غاية محددة له سلفاً[1]، وإنما هو في حكم الأداة، ونتيجة بسط الإنسان قوته على الطبيعة. لم يبق إلا الجواب التقليدي وغير المحبذ: الدين؛ لا من حيث كونه إسقاطاً اجتماعياً للإنسان على مشكلة خارجية، وإنما كمفهوم متعال خارج الإنسان، ولكنه في ذات الوقت يصل الإنسان بما وراء نفسه»[2].

بالرغم من أن هذه الرسالة لم تكن محاولة لتفسير تفشي المزاج اللاديني في قطاع مجتمعي معين (العالم العربي مثلاً)، ولا لاستقراء آحاد الدوافع بالنسبة لحالات بعينها، فضلاً عن تفسيرها، فهذا كله في نظري اشتغال بالتفاصيل ـ على أهميتها ـ

---

(١) يقصد دانييل بل أنه ليس جبرياً حتمياً باتجاه غاية ما. وهذا صحيح، لا سيما في ظل ما ذكرته في موضع سابق من هذا الكتاب من أن التاريخ غير متصور من دون بشر فاعلين.

(٢) Bell, D. (1996) The Cultural Contradictions of Capitalism, Basic Books, p. 166.

والتهاء بالفرع عن الأصل، وصرف للوعي عن المعالجة التي تعطي الإلحاد حجمه اللائق به. أقول بالرغم من ذلك كله لا مانع من التفاتة عجلى للواقع أختم بها هذه الرسالة، فأكرر: في الجملة، إلحاد جمهور الناس مركب من دوافع متغايرة ومتداخلة تعكس طبيعة السياق الذي يعيشه العالم اليوم، سياق ثقافي مترع بالتناقضات (أسئلة المعنى والخير والشر) واللامركزيات (أسئلة السلطة والحرية) والتعدديات (أسئلة الهوية والتعايش). ولا شك أن دور المحل القابل[1] ـ متى كان قابلاً بالفعل ـ بالنسبة للسياق المذكور لا يقل عن دور المغناطيس بالنسبة لبرادة حديد ناعمة، فإنها تنجذب إليه انجذاباً عنيفاً.

علاج هذه الداء المركّب ـ لمن رآه داءً يستدعي علاجاً ـ كامن في أمرين. الأول: في التبرؤ من أسطورة

---

(١) أي استعداد أو قابلية الفرد لأن يلحد (predisposition). فالفرد يلحد (أو يؤمن) لأن لديه قابلية لأن يلحد أو يؤمن، ثم هذه القابلية بالنسبة لكل فرد بعينه تجذب إلحاداً يتسق مع طبيعة العوامل التي شكلت تلك القابلية، فلا يمكن أن تجد دوافع الإلحاد ـ واعية أو غير واعية ـ عند شخصين متكافئة تماماً في النسبة والمضمون. وهذا لا ينفي أن للفرد اختيار؛ لأن القابلية هي أيضاً نتيجة يتسبب فيها الفرد في حالته السوية، وهو يتسبب في ذلك بطرق شتى يضيق هذا الموضع عن حصرها، ولكن لنضرب مثالاً: يصنع الفرد قابلية لتناول السيجارة عندما يختار أن يعرض نفسه لأول تجربة: خبرة يمارس فيها سلوك التدخين؛ عندما يقرر أن يدخن بالفعل فإنه لا يفعل لأن التدخين حاجة تمليها الفطرة أو يفرضها سياق بذاته وإلا لكانت حاجتنا للدخان كحاجتنا للأوكسجين، ولكنه يفعل لأنه اكتسب باختياره الأول قابلية (استعداداً نفسياً) لسلوك التدخين، وبالتالي هويته (تعريفه لذاته) قبل أن يعرف التدخين ليست مكافئة لهويته أثناء وبعد التدخين. اختياره الأول هو المتسبب في صنع حالة اللاتكافؤ.

«الثايموس» Thymus[1] التي تسوق الإنسان المعاصر نحو تأليه النفس وتضخيم الذات، فيجعلها لا تبني مجدها بالوقوف على أكتاف «العظماء» قبلها، كما قال نيوتن ذات يوم، وإنما على جماجمهم ورفاتهم. والثاني: في البحث الصادق ـ لمن لم يشك في جدوى الصدق بعد ـ عن «عروة وثقى» والاستمساك بها؛ عروة واحدة لا عرى؛ تجمع شتات الفكر والوجدان على مطلب كليّ واحد؛ تماماً كما يأمل الفيزيائيون اليوم وغداً، مؤمنهم وملحدهم، جمع شتات النظريات الصغرى في نظرية كلية واحدة TOE. لن يكون للنفس بعدئذ التفات للمتشابه على حساب المحكم، ولن تخلط بين وسيلة وغاية. ولا تعجبنَّ من الجملتين

---

(١) الثايموس thymus مفهوم أساسي في أطروحة فوكوياما عن نهاية التاريخ. وهو في الأصل لفظ يوناني يشير إلى الحيوية واندفاع الروح؛ وقد وظفه فوكوياما كاسم جامع للصفات النفسية التي دفعت بالإنسان الغربي على وجه الخصوص في اتجاه التحرر والاستقلال أو بتعبيره تحقيق «الاعتراف بالذات». فالثايموس، بحسب فوكوياما، قوة ثائرة متوثبة طموحة تنامت في نفس الإنسان الغربي قبل أن يوجد الغرب كما نعرفه اليوم، وتكررت في تراثه بتعابير مختلفة ودلالات مقاربة؛ فمن إشارة أفلاطون إلى زخم أو حماس الروح، إلى ما أومأ إليه ميكافيلي من تطلب الإنسان للمجد، إلى ما ذكره هوبز من زهو وخُيلاء، إلى ما أطلق عليه روسو Amour-propre: حب الذات من خلال تقدير الآخرين، أو ما دعاه الكسندر هاميلتون بحب الشهرة وجيمز ماديسون بالطموح، مروراً بما أسماه هيغل بالاعتراف، وانتهاءً بوصف نيتشه للإنسان بـ «الحيوان ذي الوجنتين الحمراوين»، يأتي مفهوم الثايموس ليصهر تلك المعاني في قالب واحد يفسّر ـ بحسب فوكوياما ـ توشّح المحطة الأخيرة من حركة التاريخ بالنظام الليبرالي العلماني الديمقراطي الذي نشهده اليوم. لا أظن القارئ الفطن في حاجة إلى مزيد تأكيد على العلاقة العضوية المتوقعة بين هذه الثقافة النفسية والمزاج اللاديني. يُنظر:

Fukuyama, F. (1992) The End of History and the Last Man, Penguin, p. 162.

الاعتراضيتين السابقتين، فإن التحرز الدائم بات سمة العصر! إذ لا شيء أكثر جناية على نفسه اليوم من الإنسان؛كما قال باسكال روبنز عن الإنسان الغربي:

«فلا شيء يتهدده اليوم في الغرب سوى اعتداده بنفسه؛ ولذا يتعين وضع حدود لشهواته الأكثر إفراطاً، والحيلولة دون التحول إلى رضيع نهم مشاكس، حتى لا يصبح أسوأ أعداء نفسه»[1].

وهل من جناية تفوق جناية الإخلال بموازين الحكم لدى المرء، فلا يدري بم يحكم؟ بل لا يدري أعليه أن يحكم أم لا؟ قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾، وقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾؛ سُنَّة اللطيف الخبير فيمن تنكروا لفطرتهم وتنكبوا صراطه القويم، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً، ولن تجد لسُنَّة الله تحويلاً؛ وعد الله، إن الله لا يخلف الميعاد.

---

(١) بؤس الرفاهية: ديانة السوق وأعداؤها؛ تأليف: باسكال روبنز؛ ترجمة: عبد الله السيد ولد أباه؛ ص١٧٩ ـ ١٨٠.

مركز نماء للبحوث والدراسات

مركز بحثي، يُعنى بتنمية العقل الشرعي والفكري، وتطوير خطابه وأدواته المعرفية بما يُمكّنه من حُسن التعامل مع تراثه الإسلامي، والانفتاح الواعي على المعارف والتجارب العالمية المعاصرة.

ويسعى إلى بناء خطاب إسلامي معتدل، متصل بحركة التنمية، حسن الفهم لمحكمات الشريعة، قوي الانتماء لها، قادر على الإقناع بها، ويمتلك في المساحات الاجتهادية: المرونة والمهارة والآداب الكافية، خطاب حسن الفهم للأطروحات الفكرية المعاصرة، قادر على فهمها وفحصها ونقدها.

ويُشارك المركز في صناعة القيادات الشرعية والفكرية التي تمتلك إلى جانب رصيدها الشرعي: أدوات المعرفة المعاصرة، ومهارات التواصل التي تُمكنها من القدرة على إيصال رسالتها على أكمل وجه ممكن.

يستهدف الباحثين وطلبة الدراسات العليا، والنخب والشباب المثقف وصناع القرار في المجال الشرعي والفكري.

يشتغل لتوصيل رسالته عبر إصدار البحوث والدراسات، والنشر الإلكتروني، وإقامة الندوات وحلقات النقاش، والتدريب، والاستشارات، والبرامج الإعلامية والإعلام الجديد.

مطابع الشبانات الدولية
هاتف: ٢١٤١١٠٠ - فاكس: ٤٥٢٨٥٣٣

لماذا هذا الكتاب ؟

لأن طبيعة التفكير والتساؤلات حصلت لها تغيرات جذرية مع هذا الانفتاح الكبير في وسائل الاتصال والإغراق في المادية، الأمر الذي يعني ضرورة استجابة الدراسات لمثل هذه التساؤلات.

ولأن الأسئلة الوجودية باتت أكثر إلحاحًا على فئات من المجتمع ومن بينها فئة الشباب المتطلع إلى المعرفة، فهي لم تعد أسئلة معزولة بعيدة عن مجال التداول كما كان في زمن مضى!

ولأننا ما لم نقدم رؤية علمية تتسم بالبرهنة والاستدلال المنطقي الناتج عن معرفة عقلية واعية بملابسات الموضوع، وما يمكن أن يترتب عليه من نتائج، فإننا لن نستطيع أن نقنع أنفسنا فضلا عن إقناع آخرين ينتظرون صوتًا معرفيًا يقدم لهم ما يركنون إليه ويثقون به.

دراسات فكرية (٤)

ولأن موضوع الإلحاد لم يعد كما هو في صورته القديمة التي عالجها الفكر الإسلامي شكلاً ومضمونًا، بل نحا مناحيَ متعددة، نحو اتجاه متطرف يتذرع بالعلمية الحديثة، ويستدل لنفسه بأدلة تقوم على نظريات وأفكار في علوم حيوية وفيزيائية ورياضية، وهي بحاجة إلى دراسة متأنية وواعية تتعامل مع الطرح الإلحادي برؤية علمية مضادة تقوم على التفكيك والتركيب والحجاج البرهاني.

من أجل ذلك جاء هذا الكتاب من مركز نماء، والذي يُقدم فيه مؤلفه مجموعة من القضايا المهمة حول المسألة الإلحادية مساهمة منه في هذا الطريق العلمي الذي نأمل أن تكتمل فيه خطوط الإنتاج المعرفي.

هذا الكتاب هو الإصدار الأول حول هذه الظاهرة الإلحادية، وستتلوه دراسات أخرى بإذن الله.

مدير المركز
ياسر المطرفي

مركز نماء للبحوث والدراسات
Nama for Research and Studies Center

info@nama-center.com